الفصل التاسع

من درعا إلى أم الجمال

- من درعا يمكن الوصول رأساً إلى أم الجمال على طريق ترابي جيد جداً يشق البادية، صالح للسيارات في الفصول الجافة، طوله ٥٢ كم، ففي أوله عند الكم ١٣ نصيب، وفيها محطة للسكة الحجازية، وفي الكم ٢٢ خربة سما (وفيها دير القديس جاورجيوس) من سنة ٦٢٤م وهي على وادي البطم، وفي الكم ٣٤ خربة أم السراب مهجورة وفيها كنيسة باسم القديسين سرجيوس وباخوس من سنة ٤٨٩م، وفي شرقي أم السراب خربتا السماقيات وطيسية، وفي جنوبي السماقيات قلعة البائك، ثم في الكم ٤٤ المبجة، وبعدها في الكم ٥٢ أم الجمال.

وأظن أنها التي ذكرها ارميا في (سفر ٢٧..) زارها كراهام ودادنيكتون ويفكر فريق من الدروز بسكناها وقد بنوا فيها البيوت، لكنهم لم يستقروا بعد وهي في معزل من الأرصفة الكبرى.

أتيح لي رؤيتها من بعد وأنا في السيارة في طريقي من بغداد إلى محطة المفرق، (١٢ تموز ١٩٤١)، وهذه المحطة غربي أم الجمال وعلى نحو ٦ - ٧ كيلو مترات عمقاً، وهي تظهر للرائي منها.

من بصرى إلى صلخد ٣٩/٢/٢٠

أولاً ـ من الطريق المستقيم. ـ ٢٣ كم إلى الشرق. وهو طريق جيد التعبيد. يتبع هذا الطريق بادئ ذي بدء الرصيف الروماني الذي كان فيما مضى يصل بصرى بصلخد وبدرعا، ويجتاز سهولاً كثيبة يعثر فيها على كثير من أعمدة الروابط.

في الكم ٩ على اليسار مجاز صالح يذهب مباشرة بعد ٢٣ كم إلى السويداء ماراً بالقريا ورساس. وبعد مسافة قليلة على اليمين الطريق الذي فيه دورة ذيبين ـ أم الرمان ـ صلخد (٣٨ كم وقد تقدم) ثم في الكم ١٣ يترك على اليمين مجازاً يوصل بعد ٢ كم إلى قرية الهيت، وفي الكم ٢٣ صلخد

ثانياً.. من المجاز المحاذي لحدود البادية وخربة أم الجمال (نحو ٩٠ كم). من كان لديه متسع من الوقت يسلك هذا المجاز من بصرى إلى صلخد فيشاهد فيه عدة أماكن أثرية ذات فائدة.

ففي الكم ٢٥ أم الجمال. ـ قرية مهجورة خراب من أعمال شرق الأردن، وهي واقعة على خط حدود جبل العرب، هذه آخر قرية في طرف البادية. وأعظم خربة في هذه البقاع، وهي من العهد البيزنطي يخترقها وادي العاقب القادم من الجنوب وهو أحد روافد الزبيدي. تمتد خرائب أم الجمال في مساحة ذرعها ٣٠٠×٨٠٠ متر، (٢٤ هكتاراً) وقد أحاط بها سور فيه ستة أبواب ظاهرة، اثنان منها في كل من الجدار الجنوبي الشرقي والجدار الغربي. وأجمل الأبواب هو الذي في شمال الجدار الغربي، ويتألف هذا الباب من عضادتين قائمتين ركب فوقهما قوس قليل الانفتاح، وقد حصن بحجرتين مبنيتين في الواجهة الداخلية من الجدار يدخل إليها من الشارع، ولا تزال إحداهما التي في الشمال سالمة. والباب الذي في شرقي الجدار الجنوبي والباب الذي في وسطه كانا محصنين بأبراج. أما بقية الأبواب فقد كانت فتحات أو ثغرات عادية ذات عقود. وأبواب الجدار الشمالي قد خربت. ولا ريب في أن هذه الجدران قد شيدت نحو أواخر القرن الثاني الميلادي، أما خرابها فلعله قد حدث في القرن الرابع واستعيض عنها فيما بعد بجدران شيدت على نفس المخطط في خارج الجدران السابقة التي لا تزال آثارها بارزة في الجهة الشرقية.

وقد كانت أم الجمال في القرن الأول الميلادي قاعدة نبطية ذات شأن كبير. ولا يزال فيها من مباني ذلك العهد أطلال هيكل وثني صغير جميل يقع في شمالي الباب الغربي. ويتألف هذا الهيكل من شكل قريب من المربع. وفي واجهته الشمالية ثلاثة أبواب. والجداران الشرقي والغربي يستطيلان في ما بعد الواجهة بنحو ثلاثة أمتار ثم ينحرفان عند انتهائهما نحو العمودين اللذين يتقدمان المدخل.

وكان في هذه المدينة عدة صهاريج وخزانات ماء. وأعظمها يقع في شرقي منتصف البلدة بقليل. وذرعه ٣٠ في ٤٠ متراً، وبعضه منقور في الصخر وبعضه مبني. وفي زاويته الجنوبية الغربية يرى بقايا درج يوصل إلى قعره. وكانت الماء تأتيه بقناة مجرورة من الوادي الذي في غربي المدينة (وادي العاقب). وثمة ثلاثة صهاريج أقل شأناً من الأول كانت تستمد قسماً من مائها من تلك القناة أيضاً، لكن أكثر الماء كان يأتيها من السيول.

وبين البابين الغربيين، وعلى بعد قليل لا يزيد ثلاثين متراً عن السور القديم، وفي أطراف الباحة الواسعة الممتدة وسط المدينة يوجد بناء عظيم لم تعرف الغاية منه. وشكله شبيه بالمنحرف. والمدخل الأصلي مفتوح وسط واجهته المنحرفة نحو الجنوب فينفذ الداخل منه إلى باحة داخلية محاطة بأروقة، فيها أربعة أعمدة، وعلى يمينها بهو شكله كالصليب، وعلى يسارها بهو واسع عليه قنطرتان صغيرتان يوصل إليه من ثلاثة أبواب، ولا يزال يظهر على سطحه أطلال الطابق الثاني. وفي شمالي هذه الأبهاء الثلاثة يوجد خمس غرف. فالشرقية منها يشرف عليها البهو ذو الشكل الصليبي، والغربية يشرف عليها البهو الكبير ذو القنطرتين. أما الغرف الثلاث الباقية فتتصل مباشرة بالباحة الداخلية. وثمة درج خارجي يبدأ من الزاوية الجنوبية الشرقية للبناء يوصل إلى السطح. وتاريخ هذا البناء من القرن الرابع.

وفي الجهة الجنوبية من جدران السور يوجد بناء يشرف عليه برج مربع الشكل لا يزال سالماً بتمامه. والأعراب هنا يسمون هذا البناء الدير. وهو على شكل مستطيل واسع قد أحاطت بكل جهاته غرف مفردة أو مزدوجة. وبعضها ذات طبقتين حول البرج. وليس لهذا البناء مدخل إلا من باب واحد مفتوح في الجدار الشرقي على بعد يسير من طرفه الشمالي. أما البرج فقائم عند الزاوية الجنوبية الشرقية وذرعه في

المربع ٤٠,٤٠ متراً وعلوه ١٥ متراً، وهو مبني بحجارة جميلة النحت، ومن الغريب أنه لايزال سالماً بتمامه. وهو مؤلف من ست طبقات، وفي أعلاه، وعلى كل من واجهاته قد فتحت نوافذ مستطيلة الشكل مسدود جزء منها. وقد نقش على كل من الواجهات اسم أحد الملائكة كميكائيل وجبرائيل ورافائيل وأوربائيل. ويرى على البرج أيضاً كتابات أخرى دينية. وفي الجهة الشرقية من البناء قد التصقت كنيسة من الأبواب المفتوحة في كل من جهاتها الكبرى. وكان هذا البناء في زمن معروف متخذاً كدير. ويظن أن المدخل الحالي قد قام مقام مدخل فخم سابق. وربما كان هذا البناء من القرن الرابع الميلادي.

وكان للريازة الدينية في مدينة أم الجمال تقدم شديد تدل عليه كنائسها الخمس عشرة ولهذه الكنائس نموذجان رئيسيان. فبعضها ذات شكل مستطيل أو مربع مع قناطر تماثل الأسواق المعقودة الكبيرة الرومانية التي يوجد منها في حوران ومنها قيسارية شقا. وبعضها منقسم إلى ثلاثة صحون مع حنية مدورة الشكل، حولها دهاليز منورة راكبة فوق الصحون الجانبية الواطئة التي على طرفي نخورس. وأغلب هذه الكنائس ذات مداخل فخمة قليلاً أو كثيراً مع أعمدة أو أبراج جانبية وبعضها ملحق بدير وبعضها مستقل بذاته.

وأجمل هذه الكنائس سلامة تقع خارج الباب الشمالي للجدار الشرقي. ولهذه الكنيسة باحة كبرى معقودة قد خرب جناحها الشمالي بالمرة، وهي تنقسم إلى ثلاثة صحون بصفوف أقواس مستطيلة لكل منها أربعة أطواق. والحنية عميقة جداً على جناحيها حجرتان تنفتح نحو الصحون الجانبية الواطئة. وكان المدخل محصناً من خارجه ببرجين مربعين لم يبق منهما إلا أثر ضئيل.

ولنذكر أيضاً كنيسة نومريانوس. وهي مبنية على التخطيط العادي للكنائس ذات الثلاثة الصحون مع حنية نصف دائرية ومحصنة بصياصي تنفتح نحو الصحون الجانبية الواطئة، وفوق هذه الصحون كان يمتد دهليز واطئ يأخذ نوره من الخارج ويوصله من فجوات إلى الباحة الكبرى المعقودة. وكان في لصق الجدار الشمالي للكنيسة دور للسكن تحتوي على باحة متوسطة اصطفت حولها غرف عديدة.

ويمكن أيضاً أن تزار كنيسة جوليانوس. وهي تقع في الطرف الشمالي من مجموعة المباني التي في الشمال الشرقي للباب الشمالي المنفتح في الجدار الغربي للمدينة. وهي على رغم خرابها الزائد، لاتزال تبدي فائدة كبرى، لأنها أقدم كنيسة عرفها التاريخ. فهي تعود إلى سنة ٣٤٥م. وهي تتألف من باحة كبيرة معقودة مستطيلة الشكل تنتهي في الشرق بحنية نصف دائرية. وكان سقفها محمولاً على عشرة قناطر متوازية وعمودية على محور البناء. وفي خارج الجهة الشمالية كان يصطف أربعة ابهاء. وكان في امتداد الجهة الجنوبية صف أعمدة فيه ثمانية أعمدة ثلاثة منها لا تزال حتى الآن سالمة، تؤلف الحد الشرقي لباحة مستطيلة حولها في الجهات الثلاث حجرات لاتزال سالمة أيضاً بتمامها.

وفي وسط الجدار الشرقي يمكن أن يرى أطلال كنيسة مكانها لا يزال ملحوظاً بجلاء. فحنيتها وصحنها قد جعلا وسط شبه منحرف. وهذا قد حصن بصيصتين ضيقيتين تنفتحان نحو الصحن. وأمام المدخل يتقدم الكنيسة رواق ذو ثلاثة أعمدة يتقدمه أيضاً درج. وكان في لصق الجهة الجنوبية مبانٍ للسكن لا تزال سالمة.

وفي الحي الجنوبي الشرقي يوجد كنيستان متعانقتان. فالشمالية ذات شكل مستطيل لها ثلاثة صحون غير متساوية العرض بحكم صفي الأعمدة الموجودين فيها، وهما يحملان قناطر صغيرة. والجهة الشمالية التي فتح فيها باب تؤلف واجهة الكنيستين معاً. وفي الجدار الجنوبي بابان يوصلان إلى الكنيسة الجنوبية التي لا تختلف عن الشمالية المذكورة أي أنها مبنية بصفوف قناطر صغيرة متوازية تحمل السقف. والواجهة الأصلية قد فتح فيها باب كبير. وعلى اليمين إذا ما ولج الزائر يرى جرناً لماء المعمودية بارزاً من الجدار. والحنيتان تحتويان على حنايا عميقة تبرز من جدار الكنيسة الشرقي.

أما الجدار الجنوبي للباحة الكبرى المعقودة فقد خرب. أما الكنيسة العظمى في أم الجمال فقد قامت في منتصف المدينة ووسط الساحة البلدية الكبرى. إلا أنها قد خربت تماماً، ولا يظهر منها إلا جدرانها الجنوبية والشمالية فقط، وقد كان لها باحة عظيمة معقودة مستطيلة الشكل منقسمة على ثلاثة صحون بصفين من

الأعمدة وكان لها حنية نصف دائرية محصنة بصيصتين تنفتحان على الصحون الجانبية الواطئة. وكان في الواجهة الأصلية ثلاثة أبواب يتقدمها أربعة أعمدة. وكان في الجدار الشمالي غرفة متصلة مع الصحن الجانبي الواطئ الشمالي.

على أن معظم خرائب أم الجمال يتألف من المساكن أو الدور الخصوصية. وكانت هذه الدور مجتمعة على شكل أحياء تكثر مكانتها أو تقل، ويفترق الحي عن الآخر بشوارع ضيقة متعرجة. وكل الدور في هذه الأحياء كانت ذات باحة واحدة أو عدة باحات. وكان لها على الشارع عدة واجهات مستقيمة عديمة الزخرف وقلما كان يفتح لها نوافذ في الطوابق السفلى. وكان يوصل من الشارع إلى الباحة العامة من ممر أو عدة ممرات معقودة. أما الأبواب والأدراج والنوافذ والشرفات فقد كانت تتجه إلى الداخل لباحات الدور وكان لهذه الدور عدة طوابق قد تبلغ الأربعة. والشكل الأكثر شيوعاً لهذه الدور كان يتألف من طابقين يحتويان على ابهاء عظيمة فيها قنطرتان أو ثلاث قناطر صغيرة، قد امتزج بها أربع طبقات من الأبهاء الصغيرة وذات السقوف الواطئة. وكلها كان مغطى بسطح مستو. وكانت الجدران مكسوة في خارجها ببلاط وفي داخلها قد طليت وزخرفت بطبقات من الجص، ولعل هذا كان ملوناً. ويظهر أن هذه المدينة كانت تحتوي على ١٥٠ حياً، وعلى سبعة أو عشرة آلاف من السكان. وهم الذين كانوا يقطنون الدور، فإذا أضيف إليهم كل الطبقات الدنيا من الشعب، صار العدد ضعفي أو ثلاثة أضعاف ما ذكر. ومعظم هذه الدور من القرن الخامس أو السادس، وأقدمها عهداً لا يبعد عن القرن الأول.

والمقبرة تحيط بالمدينة. واليوم لا يمكن أن يرى فيها أي قبر. فقد كانت الأضرحة مباني حقيقية مؤلفة من باحة متوسطة يدخل إليها من باب. وكل الجهات - ما خلا التي فيها الباب - كان فيها صفوف من المشاكي بعضها فوق بعض لوضع أجساد الموتى.

ولهذه القبور ثلاثة نماذج، الأول تلك التي مدفونة بكاملها، والثاني تلك التي حفرت في حضن جبيل وتركت كل واجهاتها ظاهرة، والثالث تلك التي دفن قسم منها وبرز القسم الآخر فوق الأرض. وفي بعض هذه القبور كتابات نبطية، وهذه

أقدمها عهداً وأخرى من القرن الأول والثاني، والبقية لها كتابات يونانية وتمتد عهودها حتى القرن السادس.

هذا وفي أم الجمال ينحرف المجاز نحو الشرق ويسير في أطراف البادية وعلى الحدود الفاصلة بين بلاد الشام وشرقي الأردن في طريق أصلحه الإفرنسيون والإنكليز. ففي الكم ٣٥ خرائب الصبحية، وهي من عهد أم الجمال وفيها بركة رومانية. وفي الكم ٥١ أم القطين، خربة مهجورة، وهي من أوسع خرائب حوران الجنوبية، طولها من الشمال إلى الجنوب نحو ٢٠٠ متر. ليس فيها أي أثر من الريازة المدرسية (الكلاسيكية) وتدل الكتابات الملتقطة من بين أطلال ثلاثة كنائس كبيرة وكنيستين صغيرة قد خربت تماماً. وفي الجهة الشرقية من هذه المدينة لا يزال يرى ركام من الأطلال أقل دثوراً من غيرها يشرف عليها برج مربع. وهذه الأطلال تعود إلى دير. وهي مؤلفة من كنيسة ذات ثلاثة صحون مع حنية نصف دائرية تتجه نحو الشرق، ومن مجموعتين من المباني ذات الباحات الداخلية في الجنوب الشرقي، وثمة باحات أخرى بينها واحدة أحجارها جميلة منحوتة وسالمة بتمامها، وكلها كانت تعود لدور خاصة.

وبعد اجتياز خربة عواد في الكم ٤٩ وهي ضيعة درزية فقيرة، يصل في الكم ٦٩ إلى العانات وهي قرية درزية حسنة، سكانها ٤٠٠ وكان اسم هذه القرية قديماً عينانوس وكانت في العصور المتوسطة مركزاً ذا شأن في صناعتي النسيج وتربية الماشية. وفي أطراف القرية إلى الشمال توجد بركة كبيرة ملآنة على الدوام، نقرت في الصخر سنة ٦٢٠ هـ ثم وسعت بعد سنتين كما تدل على ذلك الكتابة العربية الموجودة على حافتها ويوجد في شرقي العانات على بعد ٢ كم وفوق تل حبران مزار باسم السلطان سليمان يزوره الدروز. وعلى بعد ساعة وثلث من العانات أي ٨ كلم يوجد تل صغير فوقه بناء يسميه الأهلون دير الخف. وهو حصن صغير روماني مربع الشكل في زواياه ووسط واجهاته أبراج مربعة وفي امتداد جدرانه حجرات للسكن (٣٠٦) ومامن دار مسكونة حتى الآن إلا وكله أو بعضه من الدور الرومانية. والشوارع العجيبة التي في جوانبها أرصفة لاتزال سالمة ومستعملة. ثم إن فيها برجين يلفتان النظر. الأول وهو الأكثر سلامة موجود في جنوبي القرية، والثاني في وسطها.

وكان في الماضي رصيف روماني يصل صلخد مباشرة بدير الخف ماراً بالعانات ومنها يمتد ربما إلى العراق.

وبعد العانات ينحرف نحو الشمال ويجتاز سهولاً شاسعة محصاة يزرع فيها الشعير فيصل في الكلم ٧٧ إلى امتان، قرية كبيرة درزية سكانها ١٣٠٠، وهي قديماً، كانت مركزاً ذا شأن، وجد فيها كتابة مقبرية باسم رجل من بلاد الغال ومن مدينة روان، دفن فيها بعيداً عن أسرته سنة ٣٤٤ م. نشأ فيها، وفي امتان يترك على اليسار إلى الغرب مجازاً يوصل بعد ١٠ كم إلى المشقوق، وعلى اليمين مجاز يوصل بعد ١١ كلم إلى ملح الصرار.

وفي غربي أم الجمال محطة المفرق التي على السكة الحجازية وبينهما نحو ١٢ كلم، وفي جنوبها الشرقي وسط البادية وضمنها حدود إمارة شرقي الأردن وبينهما على خط مستقيم نحو ٦٠ كلم. وفي جنوبي قصر الأزرق إلى الشرق مستنقع كبير يصب فيه وادي راجل المنحدر من جبل العرب.

وبعد امتان يسلك الرصيف الروماني القديم الذي رمم سنة ١٩٢٦. ففي الكلم ٧٨ يلحظ على اليسار تلّ مخروطيّ اسمه تل الخضر، عليه مخفر عسكري شيد سنة ١٩٢٦. وفي قمته ولي يحج إليه الدروز على ضريحه بابان مزخرفان. ويشرف الناظر في هذه القمة على منظر رائع يمتد نحو السهوب الرملية المحففة في البعد نحو شرقي الأردن تلمع تحت أشعة الشمس. . وأخيراً في الـ كلم ٩٠ صلخد.